بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ليس هذا الكتاب بحثاً فى قواعد الخطابة وأصولها ، ولكنه عرضٌ لتاريخها وتطورها فى الأدب العربى ، منذ أن كان العربى فى مضارب الصحراء يقف على نشز من الأرض ، أو على ظهر راحلة فيلقى على مسامع القوم ما يريد من القول ينافرهم تارة ، أو يحضهم على قتال ، أو يريدهم على صلح ، أو يقف فى خطبة أو إملاك ، من ناحية الزوج أو الزوجة ، يَعُدُّ فضائل نفسه ، ومفاخر حسبه ، ويلتمس المودّة فى الصهر ، والقوة فى النسب ، أو يدعو قومه إلى التأمل فى ملك الله والتفكر فى ملكوته ، وما يحويه من عجائب الخلق ، وبدائع الصنع — كما صنع قس بن ساعدة الإيادى فى خطبته المشهورة المأثورة — إلى أن اتسعت شعاب الخطابة فى عصرنا ، وأصبحت سبيل الدفاع فى ساحة القضاء ، وسبب الاتهام أمام النيابة ، وطريق المحاجّة فى السياسة ، وتوضيح البرامج فى الحياة الديموقراطية ، وعدة الأحزاب فى النضال ، وأداة الإصلاح فى المجتمع ، وميدان التكريم فى المحافل ، ولسان العزاء فى المآتم ، وآية الرشد والهداية فى الدين والوعظ .

ولم نشأ أن نؤرخ للخطابة فى هذا الكتاب على طريقة العصور ، بعداً عن التقسيم الزمنى ، والترتيب على تتابع القرون ، ورغبةً أن تكون هذه السلسلة فى مجموعها تاريخاً للنوع الأدبى ومتابعةً لتطوره ، وملاحظةً دقيقة لما جد فيه أو طرأ عليه أو تغير منه ، لا تسجيلاً زمنيًّا للعصور متوالية ، والقرون متتالية . فإن التأريخ الزمانى يقطع خيط الموضوع الواحد ، ويمزق أوصاله ، أما التاريخ الموضوعى فإنه يعالج المسألة معالجة واحدة موصولة الحلقات ، ويعرضها

منذ النشأة حتى الغاية التى انتهت إليها ، والمدى الذى بلغته ، ويصورها فى جملتها فى مبحث واحد متماسك الأجزاء ، فتكون الصورة موصولة الأطراف ، محبوكة الأوصال .

ونحن هنا مقيدون بالمنهج العام لهذه السلسلة وهو التأريخ لفنون الأدب العربى ، ولكننا اضطررنا إلى بعض النظرات المقارنة فى الخطابة عند الغربيين ، وذكرنا من الأمثلة ما لا يعد خروجاً على المنهج ، ولكن يعد توضيحاً له واستكمالا لأسبابه ، حتى تكون الدراسة على إيجازها أكثر وفاء للغرض الذى نقصده ، وأتم أداء للصورة التى نريدها .

ولما كانت الخطابة موهبة لا تعلم بالقواعد ، ولا تنال بالأصول والنظريات أكثر مما تدرك بالفطرة المواتية التى ينميها البصر بأساليب البلغاء ، وطرق الأبيناء ، ويقويها التمرس بكلام اللسن المقاول ، ويغذيها الفيض الغزير من متخير الخطب ، فقد حرصنا أن تكون النماذج المسوقة لأنواع الخطب العربية على مر العصور مما يكون أصدق دلالة على القضايا التى نعالجها من ناحية ، وأكثر إمداداً للفن البيانى من ناحية أخرى .

ولعلنا بهذا نكون قد جمعنا بين التأريخ الأدبى وبين البلاغة العملية التى نريدها للشاب العربى حين يتكلم ، فيصيب مرامى الكلام ، كما يصيب الرامى مواقع السهام . . .

محمد عبد الغنى حسن